

الملاحم اللغويّة في رسالتيّ اللّغة، وحلّ المعّمى

ليعقوب بن إسحق الكنديّ.

أ. آسيه لوحيشي

جامعة الإخوة منتوري قسنطينة

ملخص:

تعرّض عمليّة التأريخ أحيانا لبعض الخلل، وبخاصّة لمّا تعنى بسيرة عَلم من الأعلام، أو شخصية من الشخصيات، وذلك لأنّ حياة الإنسان جزء لا يتجزأ من بنية أكبر منها، تتشارك فيها العوامل السياسية والثقافية والاجتماعية والدينية... الخ. والكنديّ باعتباره من أعلام القرن الثالث للهجرة فقد تأثر بعوامل عصره. لكنّ ما لاحظناه على هذه الشخصية ممّا كتبه المؤرخون، هو عدم التناسق الواضح في بعض ملاحظاتها أحيانا، وأحيانا أخرى القفز على فصول مهمة من حياتها. ولذا حاولنا البحث في ذلك والكشف عن أسبابه، والعمل على تبيان بعض الملاحم اللغويّة، في بعض ما صنّف يعقوب الكنديّ، وتحديدًا في رسالتيه اللّغة وحلّ المعّمى. ولذلك سنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

من يعقوب الكنديّ؟ وما الملاحم اللغويّة في رسالتيه اللّغة وحلّ المعّمى؟؟

Summery

The process of history may be exposed sometimes to some troubles especially if it is about the biography of one of the learnings or the personality of one of the characters. This is because human life is not Part and parcel from the structure of the larger ones, involving political, cultural, social and religious factors ... etc. Al kindi who belongs to learnings of the third century of migration has been affected by factors of his time, But what we have noticed on this character according to what was written by historians is the use of obvious asymmetry in some of his linguistics features and sometimes the shift to important chapters of his life. Thus, we tried to search for it, detect its causes and elicit the

الملاحم اللغويّة في رسالتيّ اللّغة، وحلّ المعنى، ليعقوب بن إسحق الكنديّ.....أ. آسيه لوحيشي

Linguistic features in Jacob Al kindi's letters of "al louthra" and " hal al mouama". Therefore we will try to answer the following questions:
who is Jacob Al kindi?
What are the linguistics features in his letters of of "al louthra" and " hal al mouama" ?

تمهيد:

ليس غريبا أن يكتب الفلاسفة أيضا في حقل اللغة؛ والكنديّ من أعلام المائة الثالثة للهجرة، صنّف في علوم مختلفة، منها: الرياضيات، والطب، والفلك، والموسيقى..الخ. وكتب أيضا في مجال اللغة، وخير شاهد على ذلك رسالتاه: اللّغة، وحلّ المعنى. وهما من نفائس ما أبدعته الحضارة العربيّة الإسيميّة، وتشهدان على توقد الذهن العربيّ في تلك المرحلة المتقدّمة من الزمن عامّة، وعلى مكانته العلميّة خاصّة.

لكن على الرغم من إبداعيّة الرّجل في مجالات شتى ومنها ما ضمّنه مدوّنتنا المذكورة آنفا، نجد أنّه قد غُمط عليه أشياء كثيرة ومنها معرفته باللغة العربيّة، وهو العربيّ القحّ، أبا عن جد.

الكنديّ (السيرة الغامضة)

إنّ " الكنديّ " واحد من الأعلام المشهورين، الذين أضافوا كثيرا للحضارة العربيّة الإسلاميّة. إذ يعدّ " ..من الاثني عشر عبقرى الذين هم من الطراز الأول في الذكاء.. "(1) لكن، وعلى الرغم من ذلك، فإنّ هذه الشخصية، أحيطت بكثير من الخصوصيّة التاريخيّة، التي شكلتها بعض الظروف السياسيّة،

(1): فدوى حافظ طوقان: علماء العرب وما أعطوه للحضارة، الكاتب العربي، بيروت، [دت]، ص112.

والثقافية. فالباحث في سيرته، يتعلّق الأمر بالحديث عن الغموض الذي يلفّ سيرته. هذا الأخير الذي نجم عن تجاهله قرابة القرنين من الزمن، ما جعل الأخبار المختلفة تحاك حوله. ولذا فإنّ الباحث في ترجمة الكنديّ، تعترضه عقبات كثيرة؛ لأنّ سيرته يلفها الغموض من الولادة حتى الوفاة؛ "فتاريخ ولادته غير محدد،... ونشأته مجهولة، أساتذته غير معروفين، تحصيله العلمي لا ذكر له، حوادث شخصية هامة في حياته غير مدونة.." ⁽¹⁾. حيث غابت هذه المعلومات عن كلّ التراجم القديمة التي أوردت ذكره. وهو ما يعدّ من الغرابة بمكان إذا ما اقترن بشخصية عظيمة كشخصية الكنديّ بوزنها العلميّ والحضاريّ.

ولذلك علينا البحث عن الأسباب التي أدت إلى هذا الغموض، متكئين في ذلك على مصادر ترجمته ومن ثمّة نعرّج على ذكر بعض مكونات بيئته بمختلف جوانبها، لنعرج على الملاحم اللغوية للكنديّ في رسالتيه: اللّثغة وحلّ المعنى.

• مصادر ترجمته

صنّف " ابن النديم " (ت 438 هـ) الفهرست، في القرن الخامس للهجرة، فوضع بين أيدينا ترجمة ليعقوب الكنديّ قال: " .فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها، ويسمى فيلسوف العرب، وكتبه في علوم مختلفة.." ⁽²⁾ فذكر أنّه كان متوسعا في معرفة العلوم القديمة بأسرها في زمانه، والجدير بالذكر هنا،

⁽¹⁾: أنطوان سيف: الكندي ومكاته عند مؤرخي الفلسفة العربية، دار الجيل، بيروت، ط1، 1985، ص24.

⁽²⁾: أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحق الوراق: الفهرست: تح: رضا تجدد، طهران، 1971، ص315.

أنّ الفهرست أوّل كتب التراجم التي ذكرت الكنديّ، ويأتي ذلك بعد قرنين من وفاته.

ثم ترجم له "صاعد الحصري" (462هـ) في "طبقات الأئم" (1)، و"القفطي" (646هـ) في أخبار العلماء بأخبار الحكماء (2). و"الإمام الذهبي" (ت 748هـ) في "سير أعلام النبلاء" فقال إنّ: "... وله نظم جيّد وبلاغة، وتلامذة. همّ أن يعمل شيئاً من القرآن وبعد أيام أذعن بالعجز." (3) فالجديد الذي أتى به "الذهبي" أنّه صاحب بلاغة، لدرجة أنّه همّ بصنع مثيل للقرآن، لكنّه أدرك أنّه كلام معجز، لا يُتأتى له صنّع مثيل له.

وكتب عنه في العصر نفسه "ابن نباتة المصري" (686هـ — ت 768هـ) في سرح العيون إلا أنّ الملاحظ على "ابن نباتة" أنّه ذكر أخباراً عن "الكنديّ" لم يذكرها سابقوه فذكر مثلاً، أنّه كان يقول المقطعات من الشعر، وأنّ له معرفة بالنقد الأدبي. (4)

(1): أبو القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي: طبقات الأئم، نشره وذيله بالخواشي: الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، 1912، ص 51، 52.

(2): القفطي جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف: أخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة، مصر، 1326هـ، ص: 240.

(3): شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي: سير أعلام النبلاء، تح: صالح الشمر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1983، ج 12، ص 337.

(4): ابن نباتة جمال الدين المصري: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، [دت]، ص 231-234.

أما ما يمكننا استخلاصه مما سبق ذكره؛ أنّ عدم عناية من جاء بعده لمدة قرنين بالترجمة له، وتجاهلهم مبلغ علمه، فكان السبب الأوّل في اضطراب الأقوال حوله. لكن الملاحظ على هذه الترجمات⁽¹⁾ اشتركت في ذكر نسبه العربيّ الأصيل، كما اشتركت جميعا في الحكم عليه أنّه كان " أدبيا " ⁽²⁾ ما عدا ابن النديم. فقال "ابن جلدل " (377هـ) والقفطيّ أنّه: " خدم الملوك مباشرة بالأدب... وترجم من كتب الفلسفة الكثير... " ⁽³⁾ أما الإمام " الدّهبي " فقال عنه: "... له نظم جيّد وبلاغة وتلامذة.. " ⁽⁴⁾ وذهب " ابن نباتة " إلى أنّه اشتغل بعلم الأدب، ثم بعلم الفلسفة جميعها فأتقنها.. " ⁽⁵⁾ وهذا إن دلّ على شيء فهو تمكن الكنديّ من العربيّة.

أما معاصروه فلم يأبهوا لأمره ربما لاختلاف عقائدهم العلمية وربما حسدا من عند أنفسهم، أو لأسباب أخرى تجاوزها التاريخ. ومثلما جعله " الجاحظ " (ت

(1): ابن النديم، وابن جلدل، والقفطي، وابن نباتة المصري، والدّهبي.

(2): وهذا إن دلّ على شيء فهو توسع الكنديّ في معرفة العربية. وذلك لدلالة كلمة أدب في حدّ ذاتها على ذلك. حيث تطورت دالة الكلمة " أدب " من عصر إلى آخر، ففي القرن الثالث للهجرة أصبحت تدلّ على معرفة أشعار العرب وأخبارهم، ثم ظهرت مؤلفات في هذا المعنى تسمّت بكتب = الأدب ومنها؛ البيان والتبيين للجاحظ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد... الخ. للتوسع في تتبع دلالة كلمة أدب عبر العصور ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربيّ - العصر العباسي - دار المعارف، مصر، ط 24، 2003، ص 117.

(3): إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص 191.

(4): سير أعلام النبلاء، ج 12، ص 337.

(5): سرح العيون، ص 231.

252هـ) من بخلائه⁽¹⁾ في القرن الثالث للهجرة، أمّا "ابن الأنباري"⁽²⁾ فقد عدّه جاهلاً باللّغة العربيّة في رواية رواها عنه "عبد القاهر الجرجاني" (471هـ) في "دلائل الإعجاز"⁽³⁾، أي: بعد قرنين من وفاته. فكانت لهذه الرواية، اليد الطولى في الاعتقاد أنّ "الكندي" ضعيف اللّغة، ركيك الأسلوب. إضافة إلى عاملين اثنين أسهما في ذلك، هما: اشتغاله بالفلسفة، وكونه ينتمي للمعتزلة.

⁽¹⁾: ينظر: الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: البخلاء، كتاب نوادر البخلاء، واحتجاج الأشحاء، تحقيق وشرح وتقديم: عمر الطّباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ط 01، سنة 1998م، ص 68، ص 152، ص 162.

⁽²⁾: ورّجّ عبد الحميد الهنداوي محقق كتاب دلائل الإعجاز في علم المعاني، أنّه: محمد بن القاسم بن محمد بن بشار بن الحسن الأنباري أبو بكر، وهو أديب، نحوي لغوي مفسر من كتبه (الكافي في النحو، غريب الحديث) توفي عام 328 هـ.

⁽³⁾: قال عبد القاهر الجرجاني، رُوي عن ابن الأنباري قال: ركب الكنديّ المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إنّّي لأجد في كلام العرب حشوا! فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إنّ عبد الله قائم، ثم يقولون: إنّ عبد الله لقائم، فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه وقولهم: إنّ عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل وقوله: إنّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني. قال فما أحرار المتفلسف جوابا عبد القاهر الجرجاني، أبي بكر بن عبد الرحمن بن محمّد الفارسي الأصل: دلائل الإعجاز في علم المعاني، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1422هـ-2001، ص 206.

أولاً: محنة الفلسفة: وهي تعبر عن النبذ والطرده، والتشنيع الذي لقيه أهل الفلسفة بعد أن قضى " المأمون "، حيث نكّل بالفلاسفة، وحبست عليهم أنفاسهم؛ بعدما رموا بالزندقة والكفر. "... وقالوا من تمنطق تزندق.." ⁽¹⁾ يعنون من اشتغل بالمنطق فهو زنديق. وقد بلغ بغض الفلسفة عند أحدهم حتى نادى في الناس قائلاً: " وقد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام... فخلّدوا في العالم صحفا ما لها من خلاق... ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزأوه النار.. وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه. " ⁽²⁾ فرماهم بالوهم، وتوعدهم بالنار، التي هي جزاء كل من يكتب في الفلسفة، أو يقرأ عنها. فلا غرو أن نعترف بأنّ "الكندي" وهو الفيلسوف الأوّل في العرب والمسلمين قد لقي ما لقيه المهتمون بالفلسفة كابن رشد، وابن سينا، وغيرهما، في حياته وبعد وفاته؛ فاتّهم في دينه، وأُحرقت كتبه ورسائله، وبتر ذكره من كتب التراجم لقرنين من الزمن. وما تركت إلا نتف، لا تسد رمق الباحث عن سيرته.

ثانياً: تهمة الاعتزال: لقد ورد في "البخلاء" ⁽³⁾ أنّ الكنديّ كان معتزلياً. وبما أنّه: "...أكب في نشأته على الاعتزال، فلعل ذلك ما جعل نجمه يأفل فيما بعد، حين

⁽¹⁾: توفيق الطويل: الترجمة ونقل الثقافات الأجنبية الوافدة إلى تراثنا العربي الإسلامي في عصر الإسلام الذهبي، مجلة عالم الفكر: في تراثنا العربي الإسلامي، الكويت، 1985، ص 64.

⁽²⁾: محمد يوسف موسى: بين الدين والفلسفة، دار العصر الجديد، بيروت، ط 2، 1988، ص 137، 138.

⁽³⁾: قال: "...إنّك تطالبني بما بين المعتزلة والشيعة، وبما بين أهل الكوفة والبصرة..." وهو قول مجتزأ من رسالة بعثها الكنديّ لأحد الكارين عنده، وفيها تظهر ملامح ذلك الصراع الفكريّ الذي كانت تشهده البيئة العراقية آنذاك، والذي كانت المعتزلة باعتبارها فرقة إسلاميّة طرفاً من

أفل نجم المعتزلة..⁽¹⁾ حيث قوي عود المعتزلة أيام المأمون، وطُورِدوا واستُضعِفوا أيام المتوكل. ولعل أشنع انتقام عانوه هو بتر ذكركم من التراجم، وكتب الطبقات على الرغم من بروزهم في علوم وفنون أخرى، وهذا ما لاحظته أحد الباحثين إذ يذكر في هذا الشأن قائلا: "يلاحظ أنّ المعلومات المتوفرة عن هذه الفرقة وفكرها نادرة جدا، فما هي إلا إشارات عابرة لا تكاد تفي بالمقصود، وتراجم رجالها أيضا نادرة.. أسقطوهم من طبقاتهم التي ألفوها في الرجال."⁽²⁾ وهذا ما يفسر ربما، غرابة تغاضي القرن الثالث، والرابع الهجري عن رجل كتب في مجالات عديدة، وبغزارة تثير الدهش.

ومن الأمور التي لُفِّت ليعقوب الكنديّ، جهله باللُّغة العربيّة، ومن أهمها تشنيعاه: رواية "ابن الأنباري" عن جهل يعقوب الكنديّ باللُّغة العربيّة.

لقد ذكر الإمام "عبد القاهر الجرجاني" رواية في فرط جهل "الكنديّ" المتفلسف، في باب اللفظ والنظم فصل إنّ ومواقعها، وكيف أنّ العامة وأكثر الخاصة تجهل هذه الفروق. قال: "رُويَ عن ابن الأنباري أنّه قال: ركب الكنديّ المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إنّي لأجدُ في كلام العرب حشوا، فقال له "أبو العباس":

أطرافه. الجاحظ: عمرو بن بحر: البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، مصر، ط5، [دت]، ص90.

⁽¹⁾:: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف، مصر، ط12، 2001، ص139.

⁽²⁾:: إبراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، دار الرسالة، الجزائر، ط1، 2002، ص238.

في أي موضع وجدت ذلك؟، فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثمّ يقولون: إنّ عبد الله قائم، ثمّ يقولون: إنّ عبد الله لقائم، والألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال له أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ فقولهم عبد الله قائم، إخبار عن قيامه. وقولهم: إنّ عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل. وقولهم: إنّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر؛ فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني. قال: فما أحرار المتفلسف جوابا. ⁽¹⁾ والمتصفح لهذه الرواية لأوّل وهلة يكاد يسلم أنّ "الكنديّ" جاهل بالعربية، إذ فهم من تعليق الإمام "عبد القاهر الجرجاني" على تلك الرواية أنّ منزلة "الكنديّ" من العربية هي منزلة العوام ولكن المتفحص المتتبع لهذه الرواية، يكتشف أنّها لا تعبر عن جهل "الكنديّ" باللّغة، بقدر ما تحمل عدّة تفاسير من شأنها نفي ما وصم به، وما أشيع عنه من جهل بالعربية، وعلى رأسها الحوادث التاريخية والسياقات الثقافية، لما لها من دور كبير في فهم بعض القضايا من حياة الرجال. وإذا رجعنا إلى عصر "ابن الأنباري" (271 هـ - 327 هـ) وجدنا أنّه امتاز بالصراع بين النحو والمنطق، ومن ذلك ما كتب عنه "التوحيدي" في "مقابساته" ⁽²⁾ وفي "الإمتاع والمؤانسة" تلك المناظرة الشهيرة بين "السيرافي" النحويّ و"متى" الفيلسوف المنطقي، وانتهت بانتصار النحو وغلبته.

(1): الجرجاني عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمّد: دلائل الإعجاز في علم المعاني: قرأه وعلّق عليه:

محمود محمد شاكر، الخانجي، القاهرة، ط5، 2004، ص315.

(2): أبو حيان التوحيدي: المقابسات، تحقيق: حسن السندوبي، دار سعاد الصباح، القاهرة، ط2، 1992، ص68_89.

وهذا ما يجعل الرواية، تبدو موضوعة، هدفها إبعاد أهل المنطق عن النحو بالمقام الأول، فاستهدفت رأس الفلاسفة والمناطق لتأكيد بعد المنطق عن النحو. يقول "الأهواني": " وهذا تشنيع وغمز يجعلنا نلمح ملامح التلفيق والوضع في هذه الحكاية.. فليس الكندي من الجهل والعامية حتى تخفى عليه مسألة بسيطة كهذه في أمور اللغة.. "(1) هذا من جهة.

ومن جهة أخرى؛ فهذه الرواية تدخل على رأي " أنطوان سيف " ضمن الجدل الذي كان قائما بين المذاهب النحوية الثلاثة؛ الكوفي، والبصري، والبغدادى. "(2) وبخاصة بين البصرة والكوفة، فابن الأنباري تلميذ ثعلب الكوفي المذهب، والكندي بصريّ. والبصريون هم أهل المنطق " وهم الذين أمعنوا في أحوال الكلام العربي، واستنبطوا علله، وحكّموا فيها المنطق والعقل. "(3) وذلك بملاحظة الظواهر النحوية، وربطها بأنظمة منطقية. ولا شك في أنّ الفلاسفة قد أيّدوا هذا المنهج. "(4) بينما كان منهج الكوفيين يخالف ذلك.

وأيا كان؛ فمن الواضح أنّ " الكندي " يقف في الجهة المخالفة " لابن الأنباري ". ومن البين أيضا أنّ الرواية لا أساس لها من الصحة، كيف ذلك و" الكندي " ترعرع في بيئة ثقافية تحفل بالمناقشات الكلامية واللغوية، واليوم بين أيدينا ما يثبت اتّصاله ومعرفته بعلوم اللّغة. فعلى سبيل المثال: رسالته إلى أحمد بن المعتصم " في

(1): فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، [دت]، ص46.

(2): يراجع: الكندي ومكانته لدى مؤرخي الفلسفة العربية، ص31.

(3): سعيد الأفغاني: في أصول النحو، المطبوعات الجامعية، دمشق، 1994، ص205.

(4): يراجع: أنطوان سيف: الكندي ومكانته لدى مؤرخي الفلسفة العربية، ص32.

الإبانة عن سجود الجرم الأقصى لله عزّ وجلّ⁽¹⁾ ورسالته " في كمية كتب أرسطو طاليس⁽²⁾. وقد " اعتمد في الرسالتين على التأويلات المنطقية للآيات القرآنية، ليصل لفهم أفضل لها. "⁽³⁾ يقول " الكندي " في رسالته الأولى موجهها الكلام إلى " أحمد بن المعتصم " : "...لوجدان ما فسّر به قول الله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه " والنّجْم والشّجرُ يسْجُدان " الرحمن، الآية[6]. بمقاييس عقلية. "⁽⁴⁾

وسنورد هنا مقتطفات من هذه الرسالة تشرح منهج الرجل في تفسير القرآن الكريم، معتمدا بالأساس على ما توفره العربيّة للعارف بها من فهم جيّد للآيات. قال الكندي: "...أو يكون ممن جهل العلة التي أتى بها الرسول صلوات الله عليه، ولم يعرف اشتباه الأسماء فيها والتصريف، والاشتقاقات اللّواتي وإن كانت كثيرة في اللّغة العربيّة فإنّها عامة لكلّ لغة. فإنّ في اللّغة العربيّة أنواعا كثيرة من تشابه الأسماء، حتى إنّ الاسم الواحد ليوضع على الضدين جميعا، كقولهم للعادل، أعني معطي الشيء حقه: عادل. ولضده الذي هو الجائر: عادل... "⁽⁵⁾ والكلام عن التصريف والاشتقاق لا يمكن أن يخرج إلّا عن فقيه باللّغة. بعد ذلك يشرع في إيراد معاني كلمتي السجود، والطاعة في اللّغة العربيّة ويستشهد بأبيات من الشعر. "⁽⁶⁾

(1): محمد عبد الرحمن مرجبا: الكنديّ فلسفته منتخبات، رسالة الكنديّ في " كمية كتب أرسطو "

منشورات العويدات، بيروت، باريس، ط1، 1985، ص174.

(2): المرجع نفسه: ص 207.

(3): أنطوان سيف: الكندي ومكانته لدى مؤرخي الفلسفة العربيّة، ص33.

(4): عبد الرحمن مرجبا: الكنديّ فلسفته منتخبات، ص174.

(5): عبد الرحمن مرجبا: الكنديّ فلسفته منتخبات، ص175.

(6): عبد الرحمن مرجبا: الكنديّ فلسفته منتخبات، ص175.

إنّ العوامل التي أسهمت بقوة في تكوين هذه الشخصية، وبخاصة البيئة الثقافية الحافلة بالمناقشات اللغوية والكلامية، تجعل الأخذ بهذه الرواية أمرا صعبا. وأدّل دليل على ذلك رسالتاه المذكورتان آنفا، واللّتان تحمّلان طابعا جدليا لغويا منطقيا - رسالته في الإبانة عن سجود الجرم الأقصى لله عزّ وجل..، ورسالته: في كمية كتب أرسطو - وهما توضّحان أنّ للرجل منزلة محترمة من اللّغة. ولعل رواية ابن الأنباري⁽¹⁾ تدخل ضمن الجدل والتنافس الذي كان قائما بين المدرسة الكوفية والبصرية.

أضف إلى ذلك ما ذكره ابن النديم، من مؤلفاته مما له صلة باللّغة. يتعلّق الأمر برسالته "في صناعة الشعر"⁽²⁾، و"كتاب اللفظ"⁽³⁾، الذي يتكوّن من ثلاثة أجزاء. ورسالة في صفة البلاغة، ذكرها ابن أبي أصيبعة⁽⁴⁾. لكنّ مجموع هذه الرسائل مفقود. ولأرسطوطاليس الفيلسوف اليوناني، كتاب البوطيقا وهو ما يعرف عند العرب بفن الشعر، وكتاب آخر هو الريوطيقا أو الخطابة. ولأنّ أرسطو أسبق من الكنديّ زمنيا، فقد اعتبر دي بور أنّ تأثر الكنديّ بأرسطو، جعله يحدو حدوه في مصنّفاته. وعلى الرغم من تشابه أسماء المصنّفات بينهما، إلا أنّنا نؤيد رأي هني أبو ريده، فليس بين

(1): يرجع للهامش رقم: 21.

(2): أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق ابن النديم: الفهرست، المطبعة الرحمانية،

مصر، [دط]، [دت]، ص 359. المكتبة العالمية للكونغرس. www.wdl.org

(3): ابن النديم: الفهرست، ص 365. موقع المكتبة العالمية للكونغرس. www.wdl.org

(4): ابن أبي أصيبعة موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، شرح وتحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، [دط]، [دت]، ص 293.

أيدينا ما يثبت ذلك من مجموع رسائل الكندي الموجودة⁽¹⁾. ولأنّ فيلسوفنا اشتغل بتصحيح الترجمات وشرحها⁽²⁾، فلا شك أن تكون له إضافته الخاصة، التي تسير المجتمع العربيّ، ولا نجزم بذلك لضياع هذه الكتب المذكورة سالفًا. وعلى الرغم من ذلك فلا يمكن لأحد أن يكتب في مجال اللفظ والبلاغة والشعر إلا إذا كان عريفا بها، متذوقا لها. إلا أنّ الملاحم اللغوية في فكره، تظهر جليّة من خلال رسالتيه: اللُّغة، ورسالته حلّ المعنى.

الملاحم اللغوية في رسالة اللُّغة:

أما رسالة اللُّغة؛ فهي رسالة من النوع الصغير، وتقع ضمن مجلّد ضخّم، يضمّ رسائل كثيرة، في المكتبة السليمانية، بإسطنبول، تركيا. تحت الرقم: 4832. وهي مجموعة مع عدد كبير من رسائل ثابت بن قرّة (221هـ-218هـ)، وتعبّر عن مكانة

(1): تاريخ الفلسفة في الإسلام: ج. دي بور، ترجمه وعلّق عليه: محمّد عبد الهادي أبو ريده، دار النهضة العربيّة، بيروت، ط3، سنة 1374هـ، ص: 157، 158.

(2): ينظر: كتاب أبو الطيب محمّد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القنّوجي: أبجد العلوم، دار ابن حزم، بيروت، ط01، 1423هـ-2002م، ص290. وينظر: حيدر قاسم التميمي: بيت الحكمة العباسي ودوره في ظهور مراكز الحكمة في العالم الإسلامي، زهران للنشر، الأردن، ط01، 1432هـ-2011، ص30. وينظر: حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني: كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد، 1941، ج02، ص1459. ومجلة لغة العرب العراقية مجلة شهرية أدبية علمية، تاريخية، صاحب امتيازها: أنستاس ماري الألياوي الكرّملي، بطرس بن جبرائيل يوسف عوّاد (المتوفى: 1366هـ)، المدير المسؤول: كاظم الدجيلي الناشر: وزارة الإعلام، الجمهورية العراقية - مديرية الثقافة العامة تم طبعها: بمطبعة الآداب، بغداد، ج06، ص96.

كبيرة للعقل العربيّ، في ذلك الزمان المتقدّم. فقد وَعَت مباحث مهمّة، تُظهر دقّة ملاحظة صاحبها، وتوقد ذهنه، وبراعته تشخيصه، وكذا إبداعه.

واللُّغة لغة: من: "لثغ، الألتغ: الذي يتحوّل لسانه من السين إلى الثاء"⁽¹⁾. أما اصطلاحاً: فاللُّغة مرض من أمراض الكلام.

أما الكندي فيضع للثغة مفهوماً خاصاً يوضح فيه، ما الذي يجري أثناء نطق المتكلّم بالثغة. قال: "...تعرّس اللسان، عن الحال الجاري المجريّ الطبيعيّ، حتى لا يعلم المتكلّم أين يضع لسانه من الأماكن الواجبة للنطق."⁽²⁾ وقوله: تعرّس اللسان، دلالة على العرقلة التي تحصل للسان، فتمنعه من الحركة بشكل طبيعيّ، وتجعله يطيش في فم المتكلّم هنا وهناك، في غير مواضع الحروف المثلثة، وبالتالي عدم نطق الحروف صحيحة.

وحروف اللثغة عند الكنديّ، عشرة أحرف عند الصغار، والكبار وهي: العين والسين، والشين، والكاف، والصاد، والجيم، والحاء، والراء، والقاف، والزاي. وهو عدد يفوق ما ذكره معاصره الجاحظ، الذي ذكر أربعة أحرف فقط تدخلها اللثغة، في باب الحروف التي تدخلها اللثغة، وما يحضره منها. وهي أربعة أحرف: القاف، والسين، واللام، والراء.⁽³⁾

(1): الخليل بن أحمد الفراهيدي: العين، تح: عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص70.

(2): رسالة اللثغة: ص02.

(3): أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط07، 1418هـ-2998م، ج01، ص34.

وقد تطرق الكنديّ، فيها إلى وصف الحروف العربية ومخارجها، فكانت له طريقته الخاصة في ذلك. حيث إنّه لم يتّبع الوصف الدارج للأصوات العربية آنذاك، والذي كان تصنيفاً خليليّاً، سبويّياً إن صحّ التعبير، إذ آمن اللّغويون، والنحاة بما آمن به سبويه، ولم يحاولوا الخوض أو التوسّع فيما لم يتوسّع فيه. إلا أنّ الكنديّ برع طبياً، وفيلسوفاً، وفيزيائياً، في تقديم وصف دقيق لحركة الهواء، وما يعترى أعضاء الجهاز النطقي، أثناء إخراج الحرف. ونقول الحرف لا الصوت، لأنّه لم يفرّق بينهما.

يقول الكنديّ مثلاً في وصف الزاي: "نقول في نعت الزاي: تحتاج إلى نغمة مع إلزام طرف اللّسان مقدم الأسنان، وإخراج النفس خروجاً يسيراً من بين الأسنان بزمزمة."⁽¹⁾ وفي وصف للطاء يقول: "نقول في نعت الطاء، تحتاج إلى همزة شديدة بطرف اللّسان على مقدم الأسنان، بلا نفس ولا فتحة."⁽²⁾ مازجا بذلك بين الحديث عن المخارج والصفات، وهو ما درج عليه علماء الأصوات حديثاً.

أما عن أسباب اللّثغة، فحصرها الكنديّ في سببين اثنين هما⁽³⁾:

1. السبب النفسي وهو ما سماه الكنديّ؛ قوئ النفس الناطقة وضعف النفس الناطقة. أما قوئ النفس الناطقة فهي أن تحرّك العضل تحريكاً شديداً يفسد النطق. وأما ضعف النفس الناطقة فهي أن لا تقدر أن تحرّك العضل فيفسد لذلك النطق.

(1): محمّد حسان الطيان: تحت راية العربيّة - بحوث ومقالات في العربيّة ورجالاتها، دار الثقافة

والتراث، دمشق، سورية، ط1، 2008، ص19.

(2): محمّد حسان الطيان: تحت راية العربيّة: ص:19.

(3): رسالة اللّثغة، ص03.

2. السبب العضوي : ويكون من زيادة أو نقصان في آلة النطق (اللسان) ،
والزيادة تكون نتيجة الاسترخاء الذي يصيب اللسان فيأتي الإنسان بألفاظ زائدة،
وصفها الكنديّ بأنها "... خارجة عن الجاري المجري الطبيعي على غير نظام." ²¹ أي
أنها خارجة ومخالفة عن نظام الكلام الطبيعي العادي، حيث يتلفظ الإنسان بألفاظ
زائدة. أما النقصان فيكون من تشنج يصيب اللسان فيجعل الإنسان يتلفظ بألفاظ
غير تامة.

ثم ذكر بعض ألقاب من تعترهم. وهو وإن نهج درب التلخيص في هذه
الرسالة، فإنّه ترك لقارئها مجالا للتدبر فيها ليستخرج منها ما لم يستفص فيه كاتبها،
وهو ما أقرّ به هو نفسه إذ ختم رسالته بهذا القول: "وينبغي لقارئ هذه الرسالة أن
يتدبرها بعقله، فإنّه يصح له منها علم كثير." ⁽¹⁾ وهي حقيقة تحمل بين طيات
صفحاتها المعدادات للمتفحص، من العلم الكثير. بل وتصنّف ضمن أحدث ما
تهتم به اللغويات الحديثة. وهذا ما كان من اختصارنا لما ورد في هذه الوثيقة الهامة في
تاريخ الدّراسات للغة العربيّة. ونُثني الحديث بعد ذلك بوثيقة أخرى تحسب
للكنديّ وتشهد له بالمعرفة اللغويّة الجيدة وهي رسالته: في حلّ المعمّى.

والتعمية (encipher) هي: "تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم. وحلّ
المعمّى يعني: استخراجها. أي: تحويل النصّ المعمّى إلى نصّ واضح." ⁽²⁾ وهو علم

(1): محمّد الطيان: تحت راية العربيّة، رسالة يعقوب الكنديّ في اللّثغة، ص 24.

(2): محمّد الطيان، ويحيى مير علم، ومحمّد ميراياتي: علم التعمية واستخراج المعمّى عند العرب،
مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ط 1987، ج 1، ص 09.

عربيّ بامتياز، شهد ولا يزال على عبقرية العرب، بل إنّ هذا العلم ولد بينهم كما ذهب إلى ذلك "ديفد كوهن" كبير مؤرخي علم التعمية.⁽¹⁾

بيد أنّ عبقرية العرب تتبدى جليّة من خلال توظيف المعارف اللغويّة في هذا العلم، إذ لا تهمنا هنا التعمية تحديدا بل المعارف اللغويّة التي تحويها تلك الرسائل.

فقد نصّ الكنديّ على ما تنبّه إليه اللغويون قبله أمثال "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (ت175هـ) إلى أنّ الحروف الصائتة أكثر الحروف في كلّ لسان على غرار العربيّة.

كما أشار إلى دوران الحروف في العربيّة ومراتبها من حيث القلة والكثرة، من خلال إحصاء لغويّ قام به بنفسه. ولقد أشار "الخليل" إلى أنّ أكثر الحروف دورانا في العربيّة هي الحروف الذلق _ ن، ف، ب، م، ر، ل _ وإحصاء "الكنديّ" يختلف عن إحصاء "الخليل" إذ قال: "إنّ الألف أكثر ما استعمل في اللسان العربيّ، ثم اللام، ثم الهاء ثم الواو، ي، ن، ر، ع، ف، ت، ب، ك، د، س، ق، ح، ج، ذ، ص، ش، ض، خ، ث، ز، ط، غ، ظ."⁽²⁾ ولقد تطرّق الكنديّ إلى الحديث عن الصوائت أو ما اصطلاح عليها بالمصوتات، فقسّمها إلى قسمين: أما أحدهما فالمصوتات الصغار وهي: الفتحة والضمة والكسرة. وأما الأخرى؛ فالمصوتات العظام. وهي: حروف المد المعروفة، فأكد على أنّها الأكثر دورانا واستعمالا في العربيّة وبقية اللغات، لكنّه في الوقت نفسه أقرّ بأنّ اللام هي الأكثر دورانا في اللسان العربيّ. وقد يعدّ قارئ رسالته

(1): محمّد الطيّان، ويحيى مير علم، ومحمّد ميراياتي: المرجع نفسه: ص31.

(2): محمّد الطيّان، ويحيى مير علم، ومحمّد ميراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب: ص235.

هذا تناقضا، لكنّه شرح ذلك فقال: "...وليس ذلك بمناقض لما قدّمنا، لأنّ المصوّة في اللّسان العربيّ إنّما تظهر في الخط، إذا كانت عظاما، فأما صغارها لا تظهر في اللّسان العربيّ..."⁽¹⁾ فحروف المد المعروفة تظهر في الكتابة، بينما لا تظهر الحركات القصيرة أثناء الكتابة.

أما أهمّ مبحث في رسالة الكنديّ في رأينا فهو حديثه عن تألف الحروف وتنافرها، إذ يظهر جهده الكبير في إحصائها. إذ طرق بذلك بابا من أهمّ الأبواب التي يهتمّ بها اللّغويون والبلاغيون، في حديثه عما يقترن ولا يقترن من الحروف فأحصى أبنيتها وعدّها عدّا. " وقد بلغ عدد حالات التنافر بين الحروف التي أنى الكنديّ على ذكرها، أربعاً وتسعين حالة. وهو عدد لا يستهان به في تلك الفترة المبكرة من تاريخ دراساتنا اللغوية البنيوية، ولا نعلم أحدا من علماء العربيّة سبقه." ⁽²⁾ وهذا عمل جليل يمكنه مساعدة الباحث على إحصاء أو سبر ما كان مستعملا وما كان مهملا من مبان عربيّة، إبان القرن الثالث الهجريّ تحديدا. كما أشار إلى ما اصطلاح عليه بالحروف الأصليّة والحروف المتغيّرة. فالأصليّة ⁽³⁾ هي: ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، ش، ض، ط، ظ، ع، غ، ق. ولا تكون زائدة أبدا. والمتغيّرة ⁽⁴⁾ أو الزوائد هي: ألف، ب، ت، س، ف، ك، ل، م، ن، ه، و، ي. و. وتكون زوائد تارة

⁽¹⁾: المرجع نفسه: ص 236.

⁽²⁾: المرجع نفسه، ص 133.

⁽³⁾: المرجع نفسه، ص 239.

⁽⁴⁾: محمّد حسن الطيان، مير علم، محمّد ميراياتي: علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب: ص 240.

وأصليّة تارة أخرى. وهي تقارن كلّ الحروف بالتقديم والتأخير ماعدا السين فهي لا تقارن بتقديم ولا بتأخير كلامن: ث، ذ، ص، ض، ط.

أما اللافت في هذا الترتيب أو التبويب، فإنّ صاحبه شقّ طريقا قد بعجه اللّغويون قبله، فيما يختص الحروف الأصليّة والزائدة في أبنية الكلم. ووضع عليه بصمته، إذ من المعروف في عرف النحاة مثلا أنّ حروف الزيادة هي: سألتمونيها، إلا أنّه زاد عليها ثلاثة أحرف هي: الفاء والكاف والباء.

وعلى الرغم من كلّ ما سبق ذكره، يبقى من المهم جدا، أن نلفت النظر إلى أنّه قد أخذ على " الكندي " في لغته الفلسفية.⁽¹⁾ ولم يُعذر؛ لأنّ الخطوات الأولى دائما صعبة ولأنّ " الاشتغال بالفلسفة بالنسبة للمسلم في تلك الحقبة لم يكن أمرا سهلا، يمر دون إحراج.."⁽²⁾ حيث حاول ابتكار المصطلحات، وخلق الألفاظ والعبارات الجديدة ليؤدّي بها فكره الفلسفي الناطق بالعربية. وخير دليل على ذلك رسالته " حدود الأشياء " والتي اعتبرت أوّل معجم فلسفي عربيّ، ونحن نحسبها كنزا لغويا قبل أن تكون فلسفيا. لأنّ صاحبها بذل فيها جهدا لغويا عظيما، فخلق بعض المصطلحات الفلسفية المشتقة من الجذور العربية المعروفة، وفي أحيان أخرى المنسية.⁽³⁾

(1): ينظر: ماجد فخري: تاريخ الفلسفة الإسلامية، تر: كمال اليازجي، الدار المتحدة، بيروت، ط 1974، ص 27.

(2): أنطوان سيف: الكندي ومكانته لدى مؤرخي الفلسفة العربية، ص 184.

(3): محمّد عبد الهادي أبو ريّة: رسائل الكنديّ الفلسفيّة، القسم الأوّل، مطبعة حسن، القاهرة، ط 2، 1978، ص 109 – 130.

وفي ختام مقالنا، يتعيّن علينا القول: إنّ الكنديّ عاش مرحلة مهمّة من مراحل تطوّر اللّغة العربيّة، تعبّر عن فترة مهمّة من نضج العقل العربيّ، وقد عانى كثيرا لأنّه اهتم بالفلسفة وكذلك لأنّه كان معتزليا.

وحين كان يحاول وضع مصطلحات جديدة للفلسفة الناطقة بالعربية، رمي بالجهل اللّغوي، لا لأسباب علميّة بل لأسباب سياسية وثقافية، نذكر منها محاولة إبعاد أهل الفلسفة والمنطق عن النحو. وخير مثال على ذلك رواية "عبد القاهر الجرجاني" نقلا عن "ابن الأنباري" في جهل "يعقوب الكندي" بالعربيّة. وهي رواية نحسبها من التلفيق الذي عانتها هذه الشخصية. مما نتج عن بتر ذكرها قرنين من الزمن، وهذا ما جعل الإشاعات تحوم حولها.

وعليه نستنتج من طرقنا لهذا الموضوع أنّه لا ينبغي التسليم بكلّ ما جاء في الكتب من أخبار، ليس ذلك من باب الشكّ فيهم، أو التشنيع بهم، أو التعقب لهم، لكن لأنّ بعض الأخبار ولاسيما في التراجم، كانت تقف وراءها أسباب ذاتية في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى تتحكم فيها بعض الظروف الاجتماعية والثقافية والسياسية والعقدية.

ونأمل ختما أن نكون قد قدّمنا مقاربة علميّة، حاولت الكشف عن بعض ما غُوط على هذا العلم من أعلام العربيّة، الذي يعدّ لبنة مهمّة من لبنات تلك الحضارة الزاخرة. وما كان في هذا العمل من صواب فهو من الله المنان الكريم، وما كان فيه من هنات فهي من أنفسنا، والحمد لله ذي الفضل والمِنَّة.